في رياض الشهيد السعيد

بقلم: الشيخ محمد الفحام

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحدَه, والصلاةُ والسلام على مَن لا نبيَّ بعدَه, وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا الله وحدَهُ لا شريك له شهادةَ عبدٍ لا غِناءَ له عن نهضةِ القلوب بأهلها, وشَرْحِ الصدورِ بذكرها, وأشهدُ أنَّ سيدَنا محمداً عبدُه ورسولُه جوهرُ الفضائلِ كلِّها, ومعدنُ النبوة بأصلِها, ومَظهرُ الإرثِ النافع للأجيال على امتدادِها مَنْ نَطَقَ بِنورِ حَرْفِها فقال صلى الله عليه وسلم: (العلماءُ ورثةُ الأنبياء..)

وبعد؛ فإنَّه لَمِنْ دواعي السُّرور والافتخار, والحبور والاعتبار, أنْ يُقدِّر اللهُ تعالى مثلَ هذا اللقاءِ إحياءً للقلوب الْمُحِبَّةِ, والعقولِ المعتبِرة بالوقوف بين يَدَيْ قامةٍ جليلةٍ مِن قاماتِ بلادِنا الشامية التي رحلتْ إلى الله تعالى رِحْلَةَ الشهادة والشهود في مِعْراجِ الحبِّ وخُلوصِ العبادة سيدي الشهيد السعيد الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي عليه الرحمة والرضوان, مَن خَبِرَ شَأنَه أَهْلُ العُقُولِ والعلم فضلاً عن أهل القلوبِ والفَهْم, وأدرك فضلَه ونَفْعَهُ على سائرِ البلاد كلُّ متجرِّد عاش جوهرَ المحبةِ بين أهلِها, والفكرةِ مع أصحابها, والعلومِ في رحابِ مختصِّيها.

إخوتي الأكارم؛ مما لاشك فيه أنَّه ليس بالإمكان الوقوفُ عند كلِّ الجوانبِ التي خُصَّ بها سيدي الشهيدُ السعيدُ رحمه الله تعالى لاسيما في عُجالةٍ من الوقت كهذه, لذا فما لا يُدْرَكُ كلُّه لا يُترَكُ جُلُّه, وحَسْبُنا مِن السِّوارِ ما أحاطَ بالمِعْصَم ومِن القِلادةِ ما أحاطتْ بالعُنُقِ. وعليه؛ فدونَكم مقتطفاتٍ مِن ضِياءِ مَكْنُونِه, وسراجِ مَضْمونِه؛

أولا؛ شموليَّةُ اختصاصاته؛ التي جَعَلَتِ الْمُسْتَقْرِئَ يُدْرِكُ بيقينٍ مدى التوفيقِ الإلهي الذي متَّعَهُ اللهُ تعالى به, حيث أنَّ قضيةَ الاختصاص العلمي تَتَطَلَّبُ جُهوداً كبيرة, ودراسةً دؤوبةً, ومُصابرة مُسْتَمِرةً, وذلك ما يَستغرق أوقاتاً, بل أعماراً, أَمَا وأنَّ الواقع لدى الشهيدِ السعيدِ يصدِّق تلك الحقيقة, فذلك ما يُشيرُ إلى خَرْقِ العوائدِ كرامةً له, ودلالةً على ولايته عند مولاه سبحانه القائل: (شَهِد اللهُ أنَّه لا إلهَ إلا هو والملائكةُ وأولوا العِلْمِ قَائِماً بِالقِسْطِ لا إلهَ إلا هو العزيزُ الحَكيمُ)

أقول: لقد كانت شموليةً لافتةً, وذلك مِن بيان العملِ المثمِر حيث مؤلفاتُه في صنوف تلك الفنون فوقَ الستين جلُّها موسوعاتٌ شافية, وبطريقة أكادِميَّة هادفة, من علم التوحيد _العقيدة_

ككتاب كبرى اليقينيات الكونية الذي أثْرى المكتبةَ الإسلامية, فقد جعل منه خلاصةَ ما جاء به المتقدمون من ثوابت العقيدة, وبيانات الرَدِّ على شبهات المتخرِّصين على عقيدة الإسلام بالدليل وتفسيره, والحجة وبيانها العقلي, وبسبيل المصادرة وضوابط فن المنطق.

ثمَّ إلى علومِ القرآن وعرضِ روائعه, إلى علوم الفقه وأصوله في مؤلفات متنوعة, من ذلك [ضوابطُ المصلحة], [وتحديدُ النسل] وغيرُها الكثير الذي من العسير حَصْرُ ذِكْرِه في مثل هذا الوقت اليسير, إلى السيرة النبوية وفقهها, وهل مِن أحدٍ لم يَطَّلِعْ على [فقه السيرة النبوية] ذلك الكتاب الذي تناول فيه إمامُنا جوانبَ الحياة الإنسانية ربطاً بالحياة النبوية الموثَّقةِ بالتنزلات العُلوية وحياً مِن البَدْءِ إلى الختام مع الوقوف على نِقاطٍ هامَّة أبرزَ من خلالها حُكْمَ الله تعالى في الكثير من المسائل فضلا عن النوازل ببيانِ الدليلِ وسببِ النزول والوقائعِ المسبِّبَةِ للحُكْمِ ما لا يستطيع ضبطَه إلا أهلُ التمكين في باقي الفنون, ناهيك عن الخِبْرَةِ الوافية في علوم الحديث روايةً ودرايةً, فضلاً عن رائع الفكر الذي متَّعه اللهُ تعالى به, كسِلاح للحقِّ مسلولٍ سَلَّهُ الله تعالى على كلِّ مُتَّهِمٍ لهذا الدين زوراً وبهتاناً يُنَوِّرُ به عقولَ القارئين, ويُيَقِّظُ قلوبَ الغافلين, ويَرُدُّ به الشاردين, ويُسكِت به المبتدعين والمغالين, كلُّ ذلك بِرَصانَةِ الجُمْلَةِ الأدبية التي تميَّزت بها لغتُنا العربية... أضِفْ إلى ذلك متابعتَه الدقيقةَ لشؤونِ الأمة في عالمنا العربي والإسلامي بغَيْرة ظاهرة, وهِمَّةٍ عالية مع بيانٍ للحقِّ جليٍّ, وردٍّ على الْمُسيئين قَوِيٍّ لِمَلْكِهِ الحُجةَ بيُسْرٍ عَجيب وَلَحْظٍ مُدْهش في نظام التَجَرُّد في العَرْضِ, بل إنَّ المستقرئَ لِكتابَيْ [هذه مُشكِلاتهم], و[هذه مشكلاتُنا] يُدْرِكُ تلك الخصائص المترجِمة لعلمِه الغزير وفكرِه المنير. نعم؛ إنه لَتوفيقٌ كبيرٌ من اللطيف الخبير صاحَبَ الشهيدَ السعيدَ عَمْرَهُ كلَّه لِيَدُلَّ على عظيم صلتِه بربه سبحانه وحُبِّهِ الغامِر للحضرة الإلهية ما أثْمَرَ خلاصةً للخلاصة شَرَحَتْ واقعَ تَقَلُّبِ السالكِ في طريقِ اللهِ تعالى ثمرةً زَكِيَّةً يانعة لا يَستغني عنها الخاص والعام ألا وهي شرحُه الوافي للحِكَم العطائية ببيانٍ قلَّ نظيرُه في دنيا الكُتَّاب المعاصرين بشهادة المنصفين, شرحا مُشَيَّداً بالكتابِ والسُّنةِ وجُذورِ العَقيدةِ شَرْحاً وافياً جَمَعَ فيه مكنونَ شُروحِ السابقين, وزادَ عليها مِن فَتْحِ الله ما جَعَلَه عامَّ النَّفْعِ لكلِّ أحدٍ ولَعَلَّ السِّرَّ يَكْمُنُ في مَعرفة شيخِنا بحالِ صاحب الحكم ومنهجِه السديد حيث مَتَّعَهُ اللهُ تعالى بشفافية المتَبَصِّرِ عَبْرَ صِلَةٍ روحيَّةٍ سامية, المستقرئِ للحرف مصحوباً بالفَهْم لقُصود صاحبِه هذا مع نورِ السَّبْكِ الجميلِ والعَرْضِ الحكيمِ بمنهج الرَّبْطِ بين أصالة الضوابط العلمية ومقاصدِها الهادفة, وبِتَدَبُّرٍ الموحِّدِ لربِّه العامِلِ بما يُرْضيهِ المتفاعلِ بنورِ تلك المداخل العِرفانية السامية,

فغدا الكتاب جوهرةَ التَّعَرُّفِ بالتَّلَطُّفِ على مقام الإحسان المزكِّي مِن التشوُّف, لقد ربط فيه بين حقِّ العِمارةِ الدنيوية, وإسارِ القلبِ للمعبودِ بمقام العبودية الخالصة تَضَمَّنَ لَفَتاتٍ غَنِيَّةً لأَسْرارِ بيانِ المولى الكريم (إيّاكَ نَعْبُدُ وَإيّاكَ نَسْتَعِينُ) فكان نبراساً لكلِّ باغٍ للخير وطالبٍ لمسالك الوصولِ إلى المأمول, قد صَحَّح فيه الكثيرَ من المفاهيم, فَنَهَضَ بالقُلوبِ وَرَدَّها إلى عَلَّامِ الغيوب بصفاءِ التعامُلِ مع الله تعالى في غمرةِ ضياءِ الأمرِ الإلهي الجاذبِ للقلبِ توحيداً وشُهُوداً, بالجوارح تَكليفاً إقامةً لحقِّ الشرع, وبالقلب شهوداً للمُتَصَرِّفِ الحقِّ سبحانه تحقيقاً, وذلك هو الفقه الأكبر لحُكم الله تعالى عن الله تعالى وبالله تعالى فِقْهاً ربانياً يَرفَعُ العبدَ مِن دنيا الحظوظ النفسية إلى سُدَّةِ الحقوقِ العلوية.

ثانياً؛ خطابُه الروحيُّ؛ الكامِنُ في حرفِه المكتوب الذي أَسَرَ جمهرةً كبيرةً مِن قارئيه, والتي أشارتْ إلى لِيونَة التأليف على نظام الضوابطِ العِلميَّةِ, وسياقِ السَّلاسَةِ الأدبية, والدقائقِ اللغويةِ المشفوعةِ بركائزِها العِلميةِ المسماةِ بالقواعد الضابطة لكلِّ فَنٍّ على حدٍّ سواء, وذلك مع كلِّ عِلْمٍ وفنٍّ يُفردُ له صفحاتِه, ويُسَخِّرُ لأجْلِهِ قَلَمَهُ وجليلَ أوقاتِه, وما ذلك إلا لِعَظيمِ الصِّدْقِ في التَّعليمِ والتذكيرِ والعَرْضِ لِلْمرادِ بإخْلاصٍ فَريدٍ يُتَرْجِمُ جَلالَ المراقبةِ لِذي الجَلالِ سبحانه وتعالى.

ثالثاً؛ الرابطُ الوَثيقُ بين حَرْفِ التأليفِ والخِطابِ بالكلمةِ؛ مما تَفَرَّدَ به رضيَ اللهُ تعالى عنه, أجَلْ! إلى مُسْتَوىً يُشْعِرُ القارِئَ بأنَّه الْمُخاطَبُ بالكلام والْمَعْنِيُّ بالنُّصْحِ والمقصودُ بالتَّعليمِ بدليل التفاعُلِ السَّريعِ الذي شَهِدَ به قُرّاءُ الشَّيخِ عليه الرحمةُ, وأقرَّه القريبون منه الملازمون له كيف أنَّ لِسانَه بالتَذْكيرِ لا يَنْفَكُّ عن قَلَمِهِ في التَّحْضير, وكثيراً ما نَطَق بها الربانيونَ والمنصفون في حَقِّهِ أنَّه رحمهُ الله تعالى لَأَشْبَهُ بالإمام الغزالي الذي أبقاه الله تعالى في ضميرِ الأمة وأجيالها إلى يومِنا هذا عَبْرَ تلك التآليف التي غدتْ مَصادِرَ لِجَهابِذَةِ العلماء والربانيين, وعَوناً للسَّالِكِين, ودليلاً للباحثين, وسنداً للمُصَنِّفِين, وشاهداً للعارفين.

رابعاً؛ الرابطُ المُدْهِشُ بين عِلْمِه وعمله؛ فلم يكنْ رحمه الله تعالى ناطقاً بما لا يفعل فعلى الرُّغْمَ من يَقِينِهِ بفضل العِلمِ وجزيلِ ثوابِه عند مولاه, فإنَّه لم تَشْغَلْهُ يوماً منظومةُ عِلْمِهِ المُوَزَّعَة على الأوقاتِ عن نِظامِ عَمَلِه والتفاعُلِ مع كلِّ أَمْرٍ يَذْكُرُهُ, أو نَهيٍ يُحَذِّر به, أو عِظةٍ يُنَبِّهُ من خلالها, فمَع جَريانِ الوقتِ في العِلم والتعليم, والنَّشْرِ والتأليف, والنفعِ والتوجيه, قَلْبٌ يَنْبِضُ بالمراقبة لله تعالى تَبَتُّلاً وإنابةً واحتساباً على متن الخوفِ مِن عَدمِ القبول, والرجاءِ بالمغفرة والعفوِ طمعاً بتحقيقِ المأمول.

خامساً: قيمةُ الوقت عند الإمام؛ بإعطائِه حقَّه في نظامِ الأمرِ الشرعيِّ, مِن أسرارِ التوفيق الإلهي ما أثمَرَ بركةً مُمتَدَّةٍ على الحِسِّ والمعنى, عَمَّت أعماراً, وشمَلَتْ أجيالاً, فلقد كان للوقت أهميَّةٌ كبيرةٌ لدى الشيخ رحمه الله تعالى بَدْءاً بمنهج العبادة الرَّتيب, ومُروراً بمنثُورِ الارتباط المتلاحق, وانتهاءً بالوعْدِ الشريف اللازم. أجل! لقد كانَ ابنَ وقتِه مع كلِّ مَطْلَبٍ وبِكُلِّ ما تحوي هذه الكلمةُ مِن عُمقٍ ودِلالةٍ وإشارةٍ.

سادساً: الوِعاءُ الضامِنُ لكلِّ ما سَبقَ ذِكرُهُ ألا وهو سلامةُ القلب؛ وذلك ما كان يّتَمَتَّعُ به اتجاه كلِّ أحدٍ لاسيما مخالفيه, وكثيراً ما كنا نُصْغي بين يديه لأثيرِ لُطْفِ الخِطاب إذا ذَكَرَ الرَّدَّ عليهم بالدليل يقول: نسمعُ عن إخوةٍ لنا يقولون كذا وكذا...الخ ثم يدعو لهم بالهداية وهو يَتمَنى جَمْعَ الكُلِّ على المنهج العلمي, لقد جعل الله تعالى قَلبَه الزاكيَ هو الصراطَ الذي اجتازَ عليه إلى رَحابَةِ الصَّدْرِ لِتَحْقيقِ الهدفِ السامي مِنَ الدعوةِ إلى الله تعالى ألا وهو مَبلَغُ رضاه. نعم! إنه المنهجُ الذي كان يرتقي في مِعْراجِه, ويَحُثُّ الدُّعاةَ للارتِقاءِ عليه وكان إذا استشهد بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لايَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ إِلّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ يقولُ قد قال سبحانه: ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ ولم يَقُلْ بأوقارٍ مِن العلوم والعبادات, مُعَلِّلاً أنَّ الْمُعَوَّلَ عليه عند اللقاء إنما هو القلبُ السليمُ لأنَّ صاحبَ القلبِ السليم هو العالمُ بالله, العاملُ لله, الساعي مِن أجل لله, الدالُّ على الله, وما تلك الجوارحُ إلا تبعٌ لذلك القلبِ.

هذا؛ وإنَّ من أَجَلِّ ما كان يَتجلَّى على سيدي الشهيد السعيد رحمه الله تعالى في استجلاءِ ذلك القلبِ الغامِرِ طَيْفُ الحبِّ الخالص الذي كان يُتَرْجَم بِسخاءِ الدَّمْعَة كلَّما ذُكِرَ اللهُ تعالى محبوبُه الأولُ سبحانه, وكثيراً ما كان يُسمَع جَرْسُ ذلك الوجدان بتلك الأشجان الصادِحة إذا أَمَّ القومَ في صلاة الفجرِ بِصَحَلٍ له عُمْقُ امتدادِ الفضاءِ السامي المستنزِلِ تجلياتِ الموكبِ الإلهي في سَحَرِ مَنْ ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ المضاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفَاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ إمامةً عُلْويةٍ لِفَجْرٍ يُحَلِّقُ بالمؤتَمِّين في فضاءِ ضياءِ ذلك الموكبِ الإلهي إلى استرواحِ أَلَقِ نَفَسِ الصبحِ الهادي ليومٍ مبارك من أيامِ دعوةِ الشيخِ إلى الله تعالى ذاك العظيمِ الذي اختُصِرَ في شأنِه الجليلِ ونفسِه الكريمةِ أزمنةٌ وأمكنةٌ وأشخاصٌ رحمه الله تعالى.

سابعاً: تزكيةُ النَّفس عند الإمام الشهيد مِن أهمِّ المطالب الدَّعوية؛ هي أُسُّ البناءِ لِشخصيةِ الداعيةِ, فَكَمْ كان يُحَذِّرُ مِن استثمار الداعيةِ شَخْصَهُ لحظوظِه النفسية, ولقد كان من أجلِّ رَكائزِه في ذلك منهجُ والدِه سيدي الوليِّ العارف الرباني الشيخ مُلا رمضان الذي أَسَّسَه منذ نعومةِ أظفاره على

المراقبة لله تعالى بِأَطْرِ النفس على عَدَمِ اتْباعِها هواها, وجَعْلِها تَبَعاً لما جاء به سيِّدُ الأنام عليه الصلاة والسلام, ولطالما كان منه التَّحذيرُ في مقام التذكير أنَّ نهضةَ السيِّدِ الوالدِ به كانت بالحالِ والأقوالِ والأفعالِ, بها كان يَقْرَعُ بابَ القلبِ مُستخرجاً خبايا تلك النفس التي كثيراً ما تُبَرِّرُ باطلَها بِكَلِمَةِ الحقِّ التِفافاً وتَلَوُّناً, لاسيما في معرض الانتصارِ لها تشفِّياً من نظام التعامل مع العباد, هذا؛ ومِن بديعِ قول سيدي الشهيد السعيد ما جاء في سياقِه: إنَّ النهوضَ بمهامِّ الدعوة ليس أكثرَ من وظيفةٍ يسخِّرُ الله _للقيام بها_ مَن يشاءُ, وربما كانتِ الحِكمةُ من اختيارِ مَن يشاءُ لها ابتلاءً, وربما كانت تربيةً وتهذيباً للمُرْشِدِ الداعي أكثرَ مِن أنْ تكونَ نصيحةً للناس الذين يَرْشُدُهم, وكَمْ مِن مُرشِدٍ ضَلَّ من خلال فِتْنَةِ الإرشاد...انتهى. لذلك كثيراً ما كان يتمثَّلُ كلامَ الإمام الرفاعي قُدِّسَ سِرُّهُ "أيْ سادة؛ أنا لستُ بشيخٍ لستُ بمُقَدَّمٍ على هذا الجمعِ لست بواعظٍ لست بمُعلِّم, حُشِرْتُ مع فرعون وهامان إنْ خَطَرَ لي أني شيخٌ على أحدٍ من خَلْقِ الله تعالى إلا أنْ يَتغمَّدَنيَ الله برحمته فأكونَ كآحاد المسلمين. مِن أجلِ هذا كان الإمامُ الشهيد يقول: إنَّ العالِمَ كلَّما ازداد مَعرفةً بالله تعالى وتقرُّباً منه ازداد اتهاماً لنفسه, وشعوراً بتقصيره, وخوفاً من عواقب هذا التقصير... مَن وَصَلَ إلى حقيقةِ التوحيد, وأسْقَطَ حظَّ نفسه من طريق دعوته إلى الله تعالى لم يَعُدْ يمزِجُ انتصارَه لله بانتصارِه لنَفْسِه ولِمَن يلوذون به, بل يُصبحُ انْتصارُه لله وحدَه.. لأنَّ العالِمَ الربانيَّ لا يدعو إلى نفسه, أو إلى جَمْعٍ دونَ غيرِه, وإنما يدعو إلى الإسلام فَيَنْصَحُ لله لا لِشيءٍ سواه.. إنَّه بِمِقْدارِ ما يُحيطُ الداعي إلى الله نفسَه بهالةٍ مِن التقديس ويَنْتَصِرُ لها بِمِقْدار ما يَهْتِكُ قُدْسِيَّةَ شَرْعِ اللهِ عزَّ وجل, ولو كان مُحِباً لنفسه حقاً إذاً لجنَّبها غضبَ الجبار...

أقول: وكم أَوْقَفَنا بالتأمُّل والتَّدَبُّرِ على قصة بَلْعام بن باعوراء ذاك الذي لم تنفعْهُ علومُه على غزارتها لما اندلَقَ إلى الدنيا ومفاتِنِها فَهوى في سحيقٍ مُظلمٍ حيث سُلِبَ خيري الدنيا والآخرة, وكنا نَسمَع خطابَ التحذير ذاك من صدى تِلاوَتِهِ لتلك الآياتِ التاليةِ قصتَهُ: (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آياتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكانَ مِنَ الْغَاوِينَ* وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ...) الآيات. إخوتي الأكارم؛ لقد كان اللّافِتُ للنظر أنَّ الإمامَ الشهيدَ رحمه الله تعالى كلَّما ارتقى في معارج المعارف ازداد تحقُّقاً بعبوديتِه الخالصة لمن عَرَفَ, وانغَمَسَ أكثَرَ وأكثر في مقام الافتقار للعظيمِ الغفار. كان يقول: إنني قد أُحابي لكنَّ اللهَ يَعلمُ أني لا أُحابي إلا مولايَ لا

أُحابي غيرَه, ولسوف أَجْعَلُ مِن حُبي له وتَحَيُّزي إليه زاداً أستفيدُ منه يومَ أنْ أقفَ بين يديه وإنها لوِقْفَةٌ آتيةٌ طال العهدُ أو قَصُرَ.

ثامناً؛ الشوق إلى المعبود؛ ففي أواخر المطافِ الدعَوي تعاظَمَ شَوْقُه إلى ربِّه حتى ما كادت تَجِفُّ دمعتُه يوماً, ولقد كان من أواخِرِ تآليفِه كتابُ [الحب في القرآن] ترجَم فيه لواعِجَ الشوق التي كمَنت جُذورُه في أعماقِه, ثم تفجَّرت طاقاتٍ وجدانيةً, وأحوالاً عِرْفانيةً أظهرت حبَّه لقاءَ الله وحنينَه إلى مُسْتَقَرِّهِ وأَصْلِ مأواه, ولسانُ الحال منه يتلو (وَأَنَّ إلى رَبِّكَ المُنْتَهَى) فجعل يُكثِر من تلاوتِه؛ هذا ومن روائع نظمِه؛

يا أنيسي إذا جلستُ وحيداً نائياً عن أحبَّتي وصِحابي
يا سَميري في مُوحِشَاتِ الليالي ورفيقي في رِحْلَتي واغْترابي
جَنَّتي أنتَ كُلَّما أقْفَرَ الكو نُ أمامي بِمِحْنَةٍ أوعذابِ
مَن أنا في مجاهِلِ الكونِ لولا شرفُ الذكرِ لي بآيِ الكتابِ
كيف يَلقَى الشيطانُ مني مَنالاً وخِطابُ الرحمنِ حِصْني وبابي
وظلامُ الكروبِ كيف يُغَشِّي بي ونورُ القرآنِ تاجُ شَبابي
رُبَّ يَأْسٍ أصابَني مِن ذُنُوبي بَدَّدَتْهُ أَلْطافُ آيٍ عِذاب
وأمانٍ من الهوى ساوَرَتْني أَبْعَدَتْها آياتُ يومِ الحساب
في رحابِ القرآن ألقَيْتُ رَحْلِي وَبِتَرْتيلِهِ طَوَيْتُ مُصابي
ذاك كنزي إنِ افْتَقَرْتُ وفَجْري في الدَّياجي ومُنْقِذي في الصِّعابِ

إخوتي الأكارم؛ تجلى ذلك في توجُّهِهِ الحاسم, وعدم تَلَفُّتِه, مع كثرةِ بكائِه, وعظيمِ تَبَتُّلِه, وروعةِ إنابتِه, وحرفِ دعائه, مع كثرة تلاوتِه لكتاب ربه, وحالةِ جَذْبَتِه إلى خالقِه المعبِّرة عن شعوره بِدنُوِّ الأَجَل, ويقينِه بحَتْمِيَّةِ اللقاء في رحاب المحبوب الأول سبحانه وتعالى, فازداد شوقُه وعَظُمَ التزامُه, وسما تَطلُّعُه, إلى ذلك المستوى الذي نطق به أهلوه؛

زدني بِفَرطِ الحبِّ فيك تحيُّرا وارْحَمْ حَشَىً بِلَظَى هواكَ تَسَعَّرا
وإذا سَأَلْتُكَ أنْ أراكَ حَقيقَةً فَاسْمَحْ ولا تَجْعَلْ جَوابيَ لَنْ تَرى

فأبْرَزَ اللهُ تعالى فيه مقامَ الرضى فيما ابتلى, وجعل فيه سبحانه نورَ الوراثة المحمَّدية يَتَلَأْلأُ به محيَّاه, ولقد كان المتأمِّلُ لتقاسيم وجهه المبارك لَيَقْرأُ "ألا ما أحلى الرجوعَ إليه" فكانَ مِن حكمة القَدَرِ الإلهي ذلكمُ اللقاءُ الموعود الذي حُفِظ في ضمائر جيل هذا الزمان ورجالِه وكُبرائه على عافية الحبِّ المعرفي شهادةً شاهدةً على أَحَقِّيَّتِه في المقام الذي بَوَّأَهُ مولاه إياه بين المنبر والمحراب مجلِّياً بذلك مكنونَ قولِ الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح؛ (يُبْعَثُ كُلُّ عَبْدٍ عَلى ما مات عليه) فكان ظرفُ المكان الأدنى المشرَّف مُنطلقَ المكانةِ للمقام الأعلى إلى حيث الجوارُ الأسنى (فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عند مَليكٍ مُقْتَدر) (مع النبيين والصِّدِّقينَ وَالشُّهَداءِ وَالصَّالحينَ وَحَسُنَ أُولئِكَ رَفِيقاً) وكأنَّ الحالَ الْمُصانَ منه يتلو بيانَ الحقِّ:

(ياليتَ قَومِي يَعْلمُون بما غَفَرَ لي رَبِي وَجَعَلَني مِنَ الْمُكْرَمِينَ)

رَحِمَ اللهُ الشهيدَ السعيدَ وأجْزَلَ له المثوبةَ بما هو أهلُه وجزاه خيرَ الجزاء, وجزاءَ الخير ما جازى عالماً عن قومه فقد نصحَ لِقَومِه حيّاً وميتاً, وإني لأرجو الله تعالى أنْ يَحْشُرَني ومحبِّيه مَحْشَرَه تحت لواءِ السيد الأعظم صلى الله عليه وسلم بشهودِ المقام المحمود في يوم لا يَحْزَنُ فيه أهلُ الله وخاصَّتُهُ إذا حَزِنَ الناسُ آمين آمين يارب العالمين, والحمد لله رب العالمين.

(دَعْواهُمْ فيها سُبْحانَكَ اللهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فيها سَلام وَآخِرُ دَعْواهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالمِينَ)

وكتبه محمد الفحام